سير الزمان

الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

—

أقطاب السياسة الدولية

الرئيس مسارريك

—

الاحوال في اوربا

للجنرال محطس

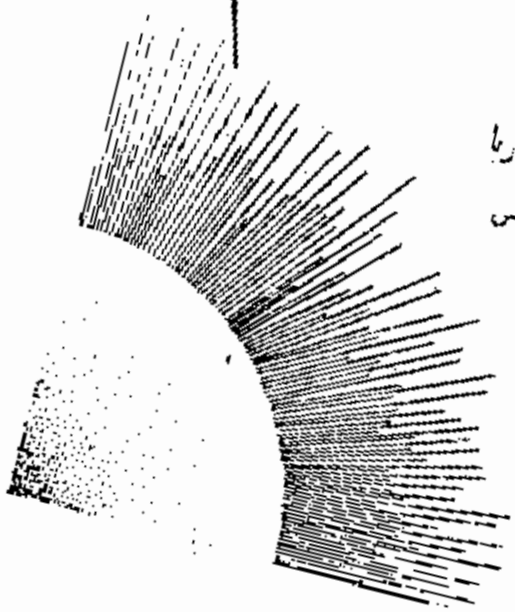

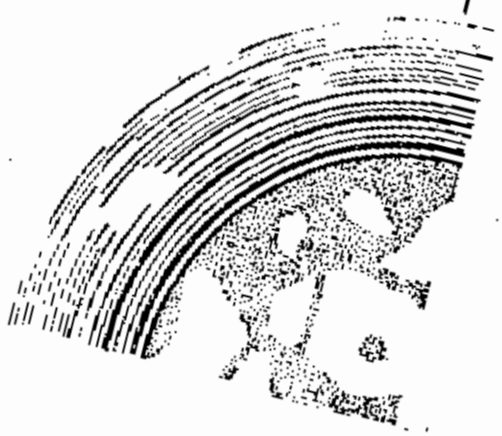

ليون دوديه الكاتب الفرنسي المشهور

Leon Daudet

(انظر مقالة الآنسة مي صفحة ٢٧١)

الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

— ١ —

اذا ضاق بك ثوبك وأصبح خنقاً أكلت جدّته الايام وذهبت برونقه الطبيعة فرقتهُ وخلعتهُ عن جسدك والقيتهُ في الأرض فأنت في شرعة الألبسة ثائر ، وانك في عالم الحياة الطبيعية أشباه ونظائر فان بعض الحشرات تنمو في غطاء قرني قاس الى ان يضيق بها فتمزقهُ بانتفاضة خفائية وتخلعه عن بدنها ثم تعود فتفرز غطاء آخر أوسع منهُ ولكنها تنمو ثانية في هذا الثوب الجديد حتى يصير ضيقاً فتخلعهُ كالاول لتكتسي بأوسع منهُ وهكذا تتبدل ثوباً من ثوب الى ان تبلغ رشدها ، وليس كابوس الاوضاع الاجتماعية السياسية والدينية والاخلاقية والاقتصادية متى ضاقت أو هرمت أقل ارهاقاً واخناقاً من هذا الثوب أو الغطاء

حدث لي في حدود سنة ١٩٢٨ ان زارني في مصر صحفي من خيرة أبنائنا في الولايات المتحدة وهو الاستاذ حبيب كاتبه فأخذ مني حديثاً لينشره في أميركا عن سورية وحالها الحاضرة فتطرقنا الى ذكر الثورة السورية الكبرى وأسبابها ودواعيها فرأيت منهُ شيئاً من الوجوم والتردد في ذكرها أو تدوينها فسألتهُ فقال « ان في الولايات المتحدة نفرة منكرة من الثورات جميعها ومن ذكرها وليس من المبالغة في شيء ان أقول لك يكاد يكون (غاندي) معبود الاميركيين لانهُ لا يتوسل الى أغراضهُ بالعنف والشدة » . وغني عن البيان ان مثل هذا الكلام الذي تفضل بهِ الصديق يدل على الذهنية التي يكون عليها الآمن فيفسي كيف يكون الخائف ، والشبعان فيفسي كيف يكون الجوعان ، والحصين فيفسي كيف يكون المهدد . فاميركا كانت يوم جرى هذا الحديث تتمتع برأس مال وبرخاء ونفوذ لا تشق غباره سائر الدول وهي الدولة الدائنة واوربا المدينة ، وكانت الأموال الأجنبية تتدفق على أسواقها لشراء أسهمها ومحصولاتها والاشتراك في المشروعات الصناعية القائمة في بلادها بينما كانت سورية على شفا الهاوية تتجرد من أموالها ورجالها وتهدد في صميم حياتها وقرميتها ولا يكاد يبلغ الصادر منها الخمس من الوارد اليها ، فلا عجب ان تكون سورية ثائرة وأميركا راضية وان ينفر أبناء هذه من سماع أحاديث تلك عن الثورات والانقلابات لان الذي يتمتع بالصحة لا يشعر بآلام المرضى . وفي التاريخ ان الملكة ماري انتوانت لما أتاها الشعب المتظلم يشكو فقد الخبز استغربت فقالت لمَ لا تأكلون الكعك ؟ !

ومن العجيب ان اخواننا الاميركيين الذين ينفرون اليوم من سماع أحاديث الثورات طلباً للحرية والاستقلال كانوا أول من ثار للخلاص من حكم الانكليز مع أنهم أهلهم وعشيرتهم ، وأول

من سنّ قاعدة لا ضرائب من غير تمثيل ، ولا يقل اعجابهم بواشنطن واخوانه المياسين من رجال الثورة عن اعجاب الفرنسيين بمجان جاك روسو ومن وضع نظريانه في الثورة الفرنسية موضع العمل . وقد رأيت في الاميركيين نفرة خاصة من تلك العادة الصينية الممقتة وهي وضع أرجل البنات في قالب لتضغطها وابقائها صغيرة تسمى لطافة من الحديد فكانوا يثيرون شعور التلاميذ الصينيين لتحطيم هذه العادة ورضخ هذه القوالب الضيقة حتى تتمكن الارجل من النموّ الطبيعي ، أفليس عجباً أن يدعوا الى الثورة العلنية دفاعاً عن حجز حرية الارجل وينفروا من الثورة للدفاع عن حرية الجماجم ؟ وهل قالب من الحديد في الارجل طوله وعرضه ووزنه يقاس بالقراريط والدواهم أثقل على الطبع من مدرعة منيخة على الرؤوس طولها وعرضها ووزنها يقاس بمئات الاذرع وألوف القناطير ؟

ولندع الآن المشاعر التي لا ضابط لها وأسباب الحب والبغض القائمة على الاوهام ولنلق نظرة عامة على ما يجري تحت سمعنا وبصرنا في البيئات البسيطة وبين الجماعات الساذجة لان درس الاوضاع في مثل هذه الاحوال يزوّدنا بالملاحظات القيمة

منذ نحو عشر سنوات غزت قبائل نجد بلاد الحجاز وكانت النعاية التي أثارت الحماسة في هذه القبائل ان أهل الحجاز مشركون مرتدون لأنهم يزورون القبور ويعظمون القباب ويرتكبون من الجرائم المنكرة تدخين التبغ وغير ذلك فبدأت الغارة على مدينة الطائف شنها الوهابيون فقتلوا النساء والرجال والاطفال وكان من بين القتلى شيوخ شهد الجميع بحرمتهم والعلوم النقلية التي امتازوا بها ، ولكن الغزاة المتشددين المتحمسين لم يرحموا أحداً لان المرتدين في نظرهم ليس لهم أمان ولا تجوز عليهم الرحمة ولا الشفقة ؛ ومن بعد ما فتحوا البلاد تبضوا على ناصية الحكم فيها بيد حديدية وطبقوا اجتهادهم الديني عليها تطبيقاً دقيقاً فمنعوا زيارة قبور الاولياء وهدموا القباب ودرسوا معالم الآثار وحتموا على الافراد حضور صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم فمن تغيب لغير ما عذر نفذت فيه الحدود ومن وجد يحمل لفافة تبغ سيق الى السجن ، أما الفنون الجميلة فقد أصيب الغناء منها خاصة بأعظم الاضطهاد حتى أن صنائع المقول منع استيرادها منعاً باتاً ومن وجدت في بيته كسرت على رأسه ، ولولا حكمة الملك عبد العزيز بن سعود لقطع علماء نجد اسلاك الهاتف لانها في حسابهم بدعة من عمل الشيطان ، وقد اقنعهم بخطئهم في الاجتهاد ان احتجهم آيات الذكر الحكيم بالتلفون ، واجتماعها هي والشياطين على صعيد واحد مستحيل طبعاً

فلنفرض الآن يا معاشر الغربيين عامة والاميركيين منكم خاصة ان افراداً من اهل الطائف تعلموا في مدارسكم على الطريقة الحديثة فنفضوا للدماء المهراقة ولم يصبروا على هدم الآثار وحمل الناس على عقيدة خاصة بالقوة وكانوا ممن أولعوا بالفن وقدروا قيمته الاجتماعية فحاولوا بواسطة التنظيم وبث الدعاية وجمع القوى المتفرقة احداث انقلاب كالتي ما كانت الوسائل المؤدية الى تنفيذه فهل تصمون آذانكم ايضاً عن سماع صياحهم ؟ ام حدوث مثل هذه الفتنة بسبب التعاليم التي تبثونها في بلاد الشرق يرضيكم عن

القائمين بها ؟ وليتق اعداء الانتقاض على الغرب واصدقاء الشدة في بلاد الشرق ان الوضعة التي عليها الأقوام المستعمرة لا تختلف عن الوضعة التي عليها اهل النطائف الا في ان الغزاة في الاستعمار اجانب وهمهم الاول استثمار المال واستنزاف الثروة الوطنية واحتكار المرافق على انواعها ، واذا ما التفتوا الى شيء من العقيدة والدين فانما يلتفتون الى ما يزرع بذور التفرقة بين الاهلين ويقوي النواعي المؤدية الى التنافر والتناحر في افرادهم . ومهما قيل عن الروح المادي في الغزوة الوهابية فان الغاية عند مؤسس المذهب هي على التحقيق مثل الغاية في الاسلام معنوية روحية اخلاقية . ولا عبرة مطلقاً بما يدعيه المحتل المستعمر من انهُ جاء البلاد للأخذ بناصر اهلها وتدريبهم على المدنية وتشجيعهم على الاخذ بأسباب النجاح لأن في افريقيا الشمالية وفي سورية الردّ الملجم على مثل هذه الدعاوي الباطلة

﴿الثورة﴾ «متى كان الشعب مستاءً متنكراً انتهز الفرصة الملائمة فثار في وجه الحكومة» هذه صفوة آراء الكتّاب في القرن السابع عشر في اسباب الثورة ودواعيها ، وقد ايدت العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية هذا الرأي تأييداً كلياً ولكنها اضافت اليهِ عظة بالغة وحكمة جامعة فحواها ان الحكومة التي لا تتصل بالشعب اتصالاً وثيقاً يمكنها من فهم الحالة الذهنية التي هو عليها تكون عرضة للثورة والانتقاض . فقد حدثت مثل هذه الثورة لما كان السلطان عبد الحميد يرتع في قصر (يلدز) لاهياً بين الخطايا غافلاً عما يغلي في صدور الرعية من مراجل النقمة ولا يصل الى يده من الاحاديث والاخبار الا ما جادت به قرائح الجواسيس الوقادة . وحدثت مثل هذه الثورة ولكن على عيار اوسع وبدماء اغزر وبانقلاب ابعد مدى لا يعلم نتائجه العالمية احد وذلك لما كان القيصر نقولا الثاني واهل بلاطه يقيمون حاجزاً كثيفاً بينهم وبين الشعب الفقير المتظلم المستعبد ويسدون آذانهم دون صراخ الاحرار في اعماق السجون ومجاهل سيبريا وهم في بهجة ورخاء يستمعون لخزعبلات (راسبوتين) ويحتمون بتمائم القديسين والتعاويذ من الشياطين والادعية من الدجالين المقربين . وعلى مثل هذا الاساس يجوز للقارىء ان يبني رأيه في تفسير الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ يوم كانت دفة السفينة في الرافدين بأيدي رجال من الجيش لا يفقهون الشيء الكثير من الادارة الملكية وما تتطلبهُ كما قالت (المس بل) من حسن اصغاء الى الرغائب الشعبية الجوهرية . وما الانقلاب الخطير الذي حدث في هذا القطر العربي منذ ذلك الحين الا شاهد عدل كيف يكون ارضاء الشعب في شؤونهِ الحيوية واستيفاؤه من مطالبه الاساسية مدعاة الى هدوئه وانتشار الوية السلام في ربوعهِ . ولو حصل في فلسطين مثل ما حصل في العراق من مراعاة السيادة العربية ما تلطخت سمعة بريطانيا السياسية الى هذا الحدّ ولا حدثت تلك الثورات المحلية . وقس بالثورة العراقية الثورة السورية الكبرى

ومن اهم شروط الثائر في نجاح دعوته الى الانتقاض ألاّ يكتفي بما يرى في الحكومة من منكر واعوجاج بل يتحتم عليهِ ان يقنع الشعب ايضاً ويستميل اليهِ الرأي العام استجماعاً للقوى فيقف الجميع جبهة واحدة والا ضاعت الجهود عبثاً ولم تثمر الثورة غير الانقلاب المؤقت ، لان الشعب

اذا لم يشعر بالمظالم شعوراً صادقاً كانت حركته اقرب الى البرودة والتصنع . ومع اثارة روح الاستياء وزرع بذور الامل لا بدّ ايضاً من تعيين الهدف امام الرماة حتى تجتمع نبالهم فلا تتفرق من غير طائل . والدهماء من الناس كما قال احد الاجتماعيين يعرفون الشيء الذي لا يريدون واما الشيء الذي يجب ان يبدوا فيتوقف على الزعماء المفكرين — يعني ان سواد الشعب سلبي في غايته والسلبية المجردة لا تأتي بغير الخراب فاذا ما اريد الانتفاع بسبل السلبية الجارف فلا بدّ من وضع الآلة الايجابية عليه وتركيبها بحيث تأخذ من قوة الجريان اعظم قدر مستطاع . وتكون هذه الآلة من صنع الزعيم والخاصّة من العاملين . وقد قلنا عن الغاية التي ينشدها الزعماء لا يجوز ان تكون من مسارح الخيال الشعري المجرد لا تقبل التطبيق ولكنها كذلك لا يجوز ان تكون مبتذلة حقيرة تجعل اصحابها والقائلين بها صغاراً حتى في نظر انفسهم . فطلب دولة عربية مركزية كبرى في الآونة الحاضرة تمتد من خليج فارس الى بحر الظلمات لا يختلف عن الاقتصار على حكومة تقام في جبل العلويين حيالها وتمالها بحرة قلم من المندوب السامي . الاول خيال يليق بقصص الف ليلة وليلة والثاني اهانة لدم الشهداء الذين ذهبوا الى المشانق باسم القضية العربية العامّة

على ان الاستياء المجرد وتعيين الهدف لا يضمنان الحركة الاّ على شرط واحد هو الامل بالحصول على الاصلاح المنشود لان العبث شبيه بانتطاح الصخر يدعو الى الشلل والقنوط . ومما ارويه بهذه المناسبة عن ثورتنا السورية الكبرى ان بعض الموظفين الاجانب المسؤولين في بيروت حاولوا ان يدفعوا تبعة الاضطراب في البلاد عن عاتقهم باتهام الحكومة الانكليزية بأنها سبب تلك الثورة وان دسائسها وذهبها يلعبان بعقول الثوار ، ولكن فاتهم ان هذه التهمة وان اوجدت لهم بعض الانصار المصدقين في باريس الاّ انها زادت في الحريق لهباً وساعدت العاملين السوريين في ميادين الثورة اذا أخمدت انفاس الناخعين في ابواق القنوط من جهة وشددت عزائم الثائرين من جهة اخرى بما توهموه من حرص الانكليز واهتمامهم بالقضية السورية العربية مرة اخرى

وقد سبق لمثل هذه الدعاية ان اثرت اثرها في سورية ايضاً بطريقة احيت الهمم الخامدة ، فقد حدث في ابريل سنة ١٩٢٢ ان زار (المستر كرين) دمشق الشام على حين غرة — والمستر كرين هو رئيس اللجنة الاميركية التي امت تلك البلاد في صيف سنة ١٩١٩ لاستفتاء اهلها في مصيرهم — فاتخذ العاملون من هذه الزيارة فرصة سانحة ليوهموا الناس ان عناية الولايات المتحدة بقضيتهم قد تجددت وان لهذه الزيارة مغزًى سياسيًّا ذا قيمة دولية خطيرة ، فانتعشت القلوب من بعد تلك الصدمة القاسية التي لاقتها من دخول الجنرال غورو وجيوشه عاصمة الامويين قهراً وضربه الغرامات على الاهلين وتوزيعه الجنود السنغاليين على البيوت ، فتجمهر الخلق على سيارة (المستر كرين) ووراءها حين وداعه متظاهرين بشكل ازعج المحتلين كثيراً وآل الى ثورة محلية سفكت فيها الدماء وامتلأت منها السجون ، ولولا وميض من الأمل يرق في الافق السياسي يومئذٍ لتأخر فجر النهضة كثيراً